مقال علم التاريخ

نص السؤال: - هل يمكن دراسة الحادثة التاريخية دراسة علمية؟

طرح المشكلة:

إن الحديث عن العلوم الإنسانية هو الحديث عن تلك العلوم التي تتخذ من الانسان موضوعا لدراستها، حيث تدرس الانسان في جانبه غير المادي وفي أبعاده المختلفة: الاجتماعي، النفسي والتاريخي. وهذا الأخير يعني دراسة الحياة الماضية للإنسان والبحث عن القوالب الابستيمولوجية التي تحوي تاريخ كل حضارة. ولقد طرح التاريخ **مشكلة ابستيمولوجية حول قيمته** وذلك بعد النتائج التي حققها المنهج التجريبي على الظواهر الطبيعية بفضل التزاماته الموضوعية، حيث ساد الشك حول القيمة العلمية للعلم التاريخ في ظل صعوبته في تطبيق الموضوعية مما أثار جدلا كبيرا بين الفلاسفة والعلماء فانقسموا إلى فريقين متعارضين: فريق يرى أنه **لا يمكن** دراسة الحادثة التاريخية دراسة علمية، وفريق آخر يرى أنه **يمكن** دراستها دراسة علمية، فطرحوا **التساؤل** التالي: **هل صعوبة تحقيق الموضوعية يحط من القيمة العلمية للعلم التاريخ؟ وبعبارة أخرى: هل يمكن دراسة الحادثة دراسة علمية موضوعية؟**

محاولة حل المشكلة:

لا يمكن تطبيق المنهج التجريبي على الحادثة التاريخية	يمكن تطبيق المنهج التجريبي على الحادثة التاريخية
الموقف الأول: يرى أصحاب الموقف الأول أنه يستحيل دراسة الحادثة التاريخية دراسة علمية تجريبية نظرا لاختلافها عن الظاهرة الفيزيائية وذلك لوجود العوائق والصعوبات واجهت العلماء.	**الموقف الثاني:** في مقابل ذلك يرى أصحاب الموقف الثاني أنه يمكن تطبيق المنهج التجريبي على الحادثة التاريخية ذلك أنها تسعى الى تحقيق الموضوعية.
ومن بين المدافعين عن هذ الطرح: محمد وقيدي، شوبنهاور	**ومن بين المدافعين عن هذا الطرح: ابن خلدون وفيكو**
- ظاهرة معنوية: ان الحادثة التاريخية حادثة ماضية وما هو ماضي غير قابل للملاحظة المباشرة، فهي لا تلاحظ بالعين المجردة ولا بالأجهزة كما نلاحظ الظواهر الطبيعية. كالحروب الأهلية في سوريا... وفي هذا يقول **محمد وقيدي: " ينتج عن عدم قابلية تكرارها ان الظاهرة التاريخية لا يمكن ملاحظتها بصفة مباشرة".**	لقد استطاع ابن خلدون أن يجعل من التاريخ علما له منهجه فحسبه التاريخ علم قائم بذاته له قوانين تحكمه والتاريخ هو خليط لمجموعة من العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تصنع التاريخ بمجمله وهو يخضع للقوانين التالية:

- **إن الحادثة التاريخية فريدة من نوعها لا تكرر**: فهي حادثة تتجه نحو الأمام دون الرجوع إلى الخلف. كما أن الزمن الذي حدثت فيه لا يعود من جديد والإطار الاجتماعي الذي اكتنفها يكون قد تغير ولذلك لا يمكن للمؤرخ اخضاعها للتجريب عن طريق اصطناع حرب تجريبية حتى يتحقق من صحة فرضياته. وفي هذا **يقول محمد وقيدي: " إن الحادث التاريخي غير قابل للتكرار" ويقول أيضا: "إن الحدث التاريخي متميز بالفرادة".** وبذلك ما لا يقبل التكرار يستحيل التجربة عليه.

- **لا تخضع لقوانين الحتمية:** فقد تجتمع ظروف كانت سببا لوقوع حرب في الماضي دون ان تثير حربا في الحاضر فقد تلجأ الأطراف المتنازعة إلى السلم بدل الحرب. **ومثال ذلك لم أعاد التاريخ نفسه وتكررت حادثة المروحة التي أدت باحتلال فرنسا للجزائر فإن فرنسا لن تتجرأ على ذلك.**

- **غير قابلة للتنبؤ**: وبما ان الحادثة التاريخية لا تخضع لمبدأ الحتمية فإنه لا يمكن التنبؤ بها ذلك ان الانسان يتصرف بحرية فمن غير الممكن التنبؤ بأحواله. **يقول جون كيميني:" التنبؤ يستحيل عن البشر لأنهم يتمتعون بالإرادة الحرة".**

- **ليست ظاهرة طبيعية (فيزيائية):** بل هي ظاهرة إنسانية ثقافية أي منتوج الوعي مما يجعلها تفلت من إمكانية دراستها دراسة فيزيائية. كما انه لا يمكننا نقلها من وسط طبيعي الى وسط اصطناعي. يقول **جيفونز: " ان التاريخ لا**

قانون السببية: ما من حادثة تقع إلا ولها أسباب طبيعية أدت إلى وقوعها، والمقصود بالأسباب الطبيعية ما تعلق بحالة المجتمع السياسية والاقتصادية والثقافية.

قانون الإمكان والاستحالة: ما كان من الاخبار معقولا وأدخلناه دائرة الإمكان وما كان غير معقول يعد من الاستحالة وبهذا المبدأ يمكن التمييز بين الأخبار الصحيحة والاخبار الخاطئة بشكل برهاني منطقي.

قانون التشابه: إن الاحداث التاريخية تتشابه في عللها ونتائجها، فالحضارات تنمو على عصبية معينة ولما تصل إلى قمة الهرم يلجأ أفرادها إلى الترف فيبدأ التقهقر والانحطاط لتبدأ حضارة أخرى في النمو بنفس العملية فالتاريخ يخضع لمبدأ الحتمية. ونفس الفكرة عند فيكو حيث يدعو إلى ضرورة تطبيق المنهج التجريبي في دراسة التاريخ. ذلك انه سيقدم لنا نتائج أكثر من مرضية كما يساعدنا على التنبؤ بحدوث الظواهر التاريخية.

قانون التطور: إن العمران البشري في تطور مستمر وأحوال الناس في تغيير وتنوع وأن قانون التشابه ليس مطلقا وان تغير الأعراض والمظاهر كتغير الشخصيات والوسائل لا يغير العلل وقوانينها فالوقائع لا تتكرر بذاتها بل كيفيات مختلفة.

كما يتفق **فيكو** مع ابن خلدون بخصوص فكرة الدور الحضاري فالمجتمعات تمر بمراحل من التطور لكن يحكمها التدهور والانحلال والسقوط.

كما أن تكييف الواقعة التاريخية وفق منهج خاص يتناسب مع طبيعة الظاهرة التاريخية ويختلف عن المنهج المطبق في علوم المادة معتمدين على الخطوات والمراحل التالية:

يمكن ان يكون علما لأنه يعجز عن اخضاع الوقائع التاريخية لما يخضع له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة".

- عائق الذاتية: وهو من أكبر العوائق الابستيمولوجية في علم التاريخ لأن المؤرخ لا يواجه ظواهر طبيعية مستقلة عنه بل حوادث مرتبطة به وبكيانه الشخصي الوطني والايديولوجي. فهو الدارس والمدروس في نفس الوقت يتأثر بإنتمائه السياسي والديني. **ومثال ذلك: المؤرخ الفرنسي ميشلي** حاول الابتعاد عن الصحف والاذاعات والاخبار واغلق على نفسه في الأرشيف المتعلق بتاريخ فرنسا وبدأ يكتب تاريخ فرنسا فلما انتهى وجد نفسه انه كتب تاريخ فرنسا كما يراه ميشلي.

وطبعا من المستحيل أن يكتب المؤرخ الفرنسي بنزاهة وحياد.

وكذلك كتب التاريخ الفلسطينية تخبرنا أن فلسطين أرض عربية احتلها اليهود سنة 1948 أما كتب التاريخ عندهم فتقول ان فلسطين هي ملك لليهود وهي أرض الميعاد التي وعدهم الله بها في التوراة. **وفي هذا يقول شوبنهاور: " ان التاريخ فن وليس علم".**

تحديد الواقعة: على الباحث ان يحدد بدقة منذ البداية الواقعة التي يود دراستها وملاحظتها ملاحظة عامة.

مرحلة التجميع: إن أول عمل يقوم به الباحث هو جمع الوثائق التي تتعلق بهذه الحادثة. إذ لا يمكن للمؤرخ ان يعرف الحوادث الماضية إلا بالآثار التي خلفتها، فلا تاريخ بدون وثائق، وكل عصر ضاعت وثائقه يضل مجهولا

وهذه الوثائق نوعان:

وثائق ارادية(مادية): كالمباني، التماثيل، النقود، الأسلحة والنقوش.

وثائق لاارادية: ويمكن تسميتها نفسية كالأساطير والقصص والآداب.

النقد أو التحليل: ويتم على مستويين:

النقد الخارجي: هنا يقوم المؤرخ بفحص المصادر من أجل معرفة هل هذه الوثيقة تعود إلى ذلك الزمن أو لا؟ وهل هي خالية من كل دس وتزوير؟

- وحتى يكون عمل المؤرخ منهجي وعلمي يجب عليه أولا أن يدرس الوثيقة في حد ذاتها كأثر مادي (الورق، الحبر، الحجر) بغية التأكد من أن هذه الوثيقة لم يصبها أي تزوير ولم تؤثر عليها الطبيعة.

كما يستعين الباحث بعلوم مساعدة لمعرفة هذا (كالتحليل الكيميائي لمعرفة تاريخ الورق الذي كتبت عليه، أو زمن الحبر) ذلك أن الحادثة التاريخية فريدة من نوعها وعلى هذا لابد من ابراز طابع الوثيقة الزماني والمكاني. كما يلجأ أيضا للجغرافيا والجيولوجيا لتأكد من صحة الحجر الأثري.

وأيضا يلجأ المؤرخ إلى المقارنة لأنه من النادر ان نجد النص الأصلي الذي كتب في ذلك الزمن، كما أن لكل عصر أسلوبه وطريقته في الكتابة والنحت والبناء...

كما يستعين أيضا بالباليو جغرافيا وهي الفن الذي يستخدم في قراءة خطوط اللغات القديمة.

وفقه اللغة الذي يهتم بتفسير تطور الألفاظ اللغوية وقواعدها. يقول **فيكو:" إن العلم الجديد يجمع بين الفلسفة وفقه اللغة ويطلب تضامن علماء اللغة والفلاسفة لتحقيقه".**

علوم وفنون أخرى: لمعرفة الآثار المادية كالأسلحة واللباس والظواهر الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية. يقول **ابن خلدون: " فهو (أي التاريخ) محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبيت يفيضان بصاحبها على الحق..."**

النقد الداخلي: أي الفحص الداخلي للمصدر من أجل معرفة هل ما ورد في هذه الوثيقة يتماشى مع عقلية الذي تنسب إليه وهل هو متفق مع ما وري في مراجع أخرى. كما يصل من خلالها إلى معرفة أفكار الكاتب وتصوراته للعالم والمجتمع الذي عاش فيه ومذهبه والظروف التي أحاطت به وجميع الأسباب التي تكون قد دفعته على الكذب أو الخطأ.

إعادة بناء الحادثة (التركيب التاريخي): وذلك بتأليف بين أجزائها وترتيبها وقف تسلسلها الزمني والسببي. فتكون كل مرحلة مقدمة لما بعدها ونتيجة لما قبلها من مراحل بهذه الطريقة يتم دراسة التاريخ بعيدا عن الأحكام الذاتية.

النقد والمناقشة:

لا يمكن انكار مدى تعقيد الحادثة التاريخية الناتج عن خصوصيتها كظاهرة معنوية، لكن يمكن دراستها بطريقة علمية موضوعية وفق مناهج خاصة تنسجم مع طبيعتها.

النقد والمناقشة:

لهذه المحاولات دورا في تقدم الأبحاث التاريخية لكن مطالبة المؤرخ بالتخلص من ذاتيته مازال امرا صعبا ومستحيل وعليه فإن الدراسات التاريخية لم ترقى إلى حد الآن إلى مستوى الدقة المطلوبة.

التركيب:

من خلال عرضنا للموقفين السابقين نرى: انه يمكن تطبيق المنهج التجريبي على الحادثة التاريخية ودراستها دراسة علمية ولكن بمراعاة خصوصيتها ومميزاتها لأنها هي التي تفرض نوعية الدراسة والمنهجية المطبقة وهذا ما هو مجسد فعلا من خلال تطور علم التاريخ والنتائج العلمية التي حققها منذ نشأته.
يقول هرنشو: " التاريخ ليس علم تجربة واختبار"

حل المشكلة:

وكحل لهذه المشكلة نرى: انه يمكن اخضاع التاريخ للدراسة العلمية ودراسته دراسة موضوعية وهذا مرتبط بمدى التزام المؤرخ بشروط الدراسة العلمية وخاصة الموضوعية. كما انه يمكن دراسة التاريخ دراسة علمية وفق مناهج خاصة (منهج الرواية، منهج الدراية، منهج الفهم) **يقول دالتاي: " المناهج التي ندرس بها الحياة الروحية والتاريخ والمجتمع تختلف عن المناهج التي تقود الى معرفة الطبيعة".**